Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البداية، من آخر حرف إلى أول حرف، كما هو الحال، مثلاً، بالنّسبة لعبارة «ساكب كاس».[23] هذا النّوع من الألعاب الكتابية (الذي لا يُلاحظ إلاّ عندما يُنبّه إليه) مقنن ووارد في التّقسيمات البلاغية، وبالتالي فإنّه مقبول ومعترف به. أمّا ألعاب أبي العِبَر فإنّها من نوعٍ آخر لأنّها تقضي على المعنى وعلى النّص وعلى القراءة والكتابة، فلا ينتج عنها إلاّ الهوس والهذيان. كيف كان يتوصّل إلى إنشاء خطابات مجنونة ؟ لا ننس أنّه «ليس بجاهل [...] وإنّما يتجاهل».[24] فالجنون ليس بالنّسبة إليه طبيعة قاسرة لا سبيل إلى مقاومتها، وإنّما فنٌّ يحمل نفسه عليه ويتعمّده. وككُلّ فنٍّ فإنّ جنونَ أبي العِبَر يخضع لقواعد ومقاييس ومبادئ كان يشرحها للّذين يندهشون من كلامه ويرون فيه سرّاً يودّون ردّه إلى أصله :

«سمعتُ رجلاً سَأَلَ أَبَا العِبَر عَن هَذه المحالات التي يتكلّم بها : أيُّ شيءٍ أصلها ؟ قال : أُبَكّر فأجلس على الجِسر، ومعي دواة ودَرْج، فأكتبُ كل شيء أسمعه من كلام الذّاهب والجائي والملاّحين والمُكارين، حتّى أملأ الدَّرْج من الوجهين، ثم أقطعه عرضاً، وألصقه مُخالفاً، فيجيء منه كلامٌ ليس في الدّنيا أحمق منه».[25]

يبدو أنّ السّحَر أحسنُ وقتٍ لعمل الشّعر وأنّ المكان الخالي يشحذ القريحة ويفتح المعاني المستغلقة.[26] أبو العِبَر يبكّر، ولكنّه يختار مكاناً مطروقاً مسلوكاً، يختار الجِسر الذي هو ملتقى عدّة أصنافٍ من النّاس، والذي لا تكف حركة المرور فوقه كما لا تكف حركة الماء تحته. فالماء لا يتوقّف ولا يكف عن السّيلان، والملاّحون والمُكّارون متعودون على التّجوال والطّواف والحركة المستمرّة، الملاّحون على الماء والمكارون على الأرض. الجسر ملتقى صنفين متعارضين من النّاس، ملتقى الماء والأرض.

23) الحريري، ص. 152.
24) الإصفهاني، ص. 77.
25) الإصفهاني، ص. 81. الدّرج : ما يُكتب فيه.
26) ابن رشيق، I، ص. 178 و 182.